الفصل الثاني

أدبنا والحياة في ظل الإسلام

- الإسلام والشعر
- الخضرمة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام والشعر

قال الأقدمون :

« إن الشعر نكَدٌ بابُه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعُف ولان . هذا حسان بن ثابت : فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره » .

الشعر والشعراء لابن قتيبة

وقالوا أيضاً : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد، وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته » .

طبقات الشعراء لابن سلام

ويقول تراثنا : إن الشعر كان سلاحاً من أمضى الأسلحة في المعركة بين الوثنية والتوحيد ، وأنه ظل محتفظاً بكل سلطانه على وجدان العرب ، لم يعطله اشتغالهم بالفتوح ، ولم يفقد البيانُ سحره في قوم آمنوا بدينٍ ، معجزته بيانية باهرة » . .

obeikandl.com

obeikandl.com

ظهر الإسلام : وللشعر فى المجتمع العربى الأصيل هذه المكانة الهامة التى عرفناها ، وللشعر فى قومه تلك المنزلة العالية التى ينهض فيها بالقيادة الوجدانية .

ونقرأ تاريخنا الأدبى ؛ فتلقانا أحكام شائعة ومقررات مفروضة ، ظلت توجه ذوقنا وتسيطر على فهمنا لمدى قرون. فإذا فينا اليوم من لا يزال يردد ما قرره نقاد القرنين الثانى والثالث . من أن الشعر هانت مكانته وتعطلت وظيفته ، منذ وقف الإسلام منه موقف العداء ؛ ونزلت فيه آية الشعراء :

« والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وراجت فينا أقوال تؤيد هذا الحكم أو تعلله ، منها ما رووا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً »(1) ومنها قولة الأصمعى : « إن الشعر نكد بابُه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ولان . هذا حسان بن ثابت ، فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره »(2) .

ومنها أن الشعر فقد تشجيع الملوك ، وامتُحن برقابة صارمة على الشعراء جعلت عمر بن الخطاب يزجر حسان بن ثابت حين سمعه ينشد الشعر فى مسجد الرسول ، ويسجن الحطيئة فى هجائه للزبرقان بن بدر ، وينذر النجاشى الحارثى بقطع لسانه ، عندما هجا بنى العجلان(3) .

ومنها أن الشعر فقد استجابة الجمهور الذى انصرف عن الشعر بالدين واشتغل عنه بالفتوح الإسلامية ؛ ويروون عن عمر بن الخطاب أنه قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ؛ ولهيت عن الشعر وروايته »(4) .

---

(1) ابن رشيق : العمدة ١/١٢ ومعه (الشعر والشعراء : ١/١٢٦) معارف .
(2) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٣٠٥ معارف . (3) الأغانى : ٤ / ١٤٤ .
(4) طبقات الشعراء لابن سلام : ص ١ ط بريل .
وانظر الدكتور طه الحاجرى فى (تاريخ النقد) ص ٤٧ .
والدكتور شكرى فيصل فى (تطور الغزل) ص ١٨٢ ط دمشق .

ولو صح أن الحياة استغنت فى تلك الفترة الثورية الجادة المؤمنة . عن الشعر والشعراء . لكانت القاضية . إذ يكون ذلك شاهداً على أن لا مكان للأدب فى مجتمع جاد ثائر مناضل .

فهل كان هذا صحيحاً ؟

لن يكفى هنا أن نقول إن آية الشعراء إنما لعنت المضللين منهم والكاذبين ، واستثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وإن هذا هو ما فهمه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وإلا لما استحل نبي الإسلام لنفسه أن يستصفى له شاعراً يقول وروح القدس معه ، وأن يخلع بردته على شاعر كان قد أهدر دمه ، وهو كعب بن زهير ، بعد أن أنشده « بانت سعاد »[1] وأن يدعو للنابغة الجعدى ألا يفض الله فاه عندما أنشده رائيته ، وأن يستنشد الشعراء ، ويعجب بمراثى الخنساء . وبيت لطرفة ، وأبيات لقس بن ساعدة ، سمعه صلى الله عليه وسلم ينشدها فى سوق عكاظ قبل المبعث .

فهذا — ومثله كثير — قد يرد على من أساءوا فهم موقف الإسلام من الشعر . وظنوا أن الشعراء فقدوا تشجيع الدولة الجديدة ، لكنه لا يكفى لدفع الدعوى الخطيرة ، بأن الشعر أضاع مكانته وحُرِم جمهوره ، وفقد بالإسلام سلطانه على الجماعة ، منذ استقبلت عهد الإيمان والجهاد . .

ونريد لنذكر معه ما روى فى (السيرة النبوية لابن هشام) عن جزع قريش حين علمت أن الأعشى « خرج يريد الإسلام ، فترصدت له فى الطريق وما زالت به ، ترهبه وترغبه حتى ثنته عن مقصده إلى حين [1] .

» فهل كان هذا الجزع إلا خوفاً من سلطان الشعر وتقديراً لخطر تأثيره على الرأى العام ؟ وهل كانت قريش بحيث يعنيها أمر هذا الأعشى لولا أنه شاعر ؟

وفى الخبر أن « عبد الله بن رواحة » قال : « مررت بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى نفر من أصحابه فأضبَّ القوم : يا عبد الله بن رواحة ! فعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعانى ، فانطلقت إليه مسرعاً فسلمت فقال : "ها هنا" ! فجلست بين يديه . فقال كأنه يتعجب من شعرى : "كيف

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٠ : ٢١ ط أوربا . مع (السيرة النبوية لابن هشام) وطبقات الصحابة .

تقول الشعر إذا قلت ؟"قلت : أنظر فى ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين »[١] .

وفيه كذلك . أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للأنصار يستنفر الشعراء منهم للجهاد باللسان :«ما يمنع قومًا نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟» فقام له منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وقد قال فيهم رسول الله : «هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل» فهل كان هذا إلا تعبئة وجدانية تقدر خطر الشعر فى المعركة ، وتدرك أثره العميق فى نفوس الجماعة ؟

وفى (السيرة لابن هشام) أن عطارد بن حاجب بن زرارة . قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أشراف من بنى تميم منهم « الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم » لمفاخرة النبى صلى الله عليه وسلم . فتقدم خطيبهم « عطارد » فخطب ، فانتدب الرسول «ثابت بن قيس الخزرجى» للرد عليه . ثم قام شاعرهم « الزبرقان » فأنشد قصيدته التى يقول فيها مفاخراً :

نحنُ الكرام فلا حيٌّ يعادِلُنا ... منا الملوكُ ، وفينا تُنصَبُ البيعُ

فبعث الرسول إلى « حسانَ بن ثابت » — ولم يكن حاضراً بالمجلس — فجاء وأنشد يرد على « الزبرقان »[٢] :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنةً للناس تُتبع

فلما فرغ من إنشاده التفت الأقرع بن حابس إلى أصحابه وقال :

« وأبى . إن هذا الرجل لمُؤْتَى له : لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا ، ولشاعرُه أشعر من شاعرنا . ولأصواتهم أحلى من أصواتنا » ثم أسلموا جميعًا[٣] .

وللخبر دلالته الصريحة على خطر هذا الأدب فى المجتمع المشغول بالدعوة الكبرى المجهد بالنضال بين الوثنية والتوحيد : فهؤلاء الذين جاءوا للمفاخرة بسلاح القول شعراً ونثراً ، لم يكادوا يصغون إلى خطيب الرسول وشاعره ، حتى أدركوا أبعاد الموقف ، فقال قائلهم : إن هذا الرجل لمؤتى له . . ثم أسلموا طائعين . .

---

(١) طبقات ابن سلام : ٥٥ ط أوربا .

(٢) العمدة : ١ — ١٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، عام الوفود : ٤/٢١٢ ط الحلبى .

وفى حديث السير والمغازى ، نقرأ أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث فى السنة الثانية للهجرة ، سرية عمر بن عدى الحطمى إلى عصماء بنت مروان « وكانت تعيب الإسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه وتقول الشعر »[١]

وفى ترجمة « كعب بن زهير » أنه لما بلغه أن الرسول أهدر دمه لشعر قاله . استطير ولفظته الأرض . فقدم على الرسول متنكراً وهو متلثم بعمامة فقال : «يا رسول الله ، رجل يبايعك على الإسلام » وبسط يده وحسر عن وجهه وقال : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، هذا مكان العائذ بك . أنا كعب بن زهير » فتجهمته الأنصار وغلظت عليه لما ذكر به رسول الله فى شعره . ولانت له قريش وأحبوا إسلامه وإيمانه . فلما أمنه الرسول وأنشده مدحته « بانت سعاد » إلى قوله :

فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا : زولوا
زالوا ، فما زال أنكاس ولا كشُفٌ يومَ اللقاء ، ولا سود معازيل
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم وما بهم عن حياض الموت تهليل

نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى من عنده من قريش كأنه يقول : اسمعوا حتّى إذا قال « كعب » معرضًا بالأنصار لغلظتهم :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضربٌ إذا عرَّد السودُ التنابيل !

قامت قائمة الأنصار ، فلم يهدأ غضبهم حتى قال فيهم « كعب » مصالحـًا بشعره ما أفسد :[٢]

من سرّه كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالح الأنصار
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون كأنه نسُك لهم بدماء من علقوا من الكفار

فهل كان دمُ « كعب » يهدر لشعر قاله ، لو أن الشعر فقد سلطانه ونفوذه ؟ أو كان الأنصار يغضبون لبيت قاله فيهم فى بردته ، لو أن سلاح الشعر قد فُلَّ بالإسلام ؟

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى – ٢/١٨ ط بريل .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام : ٢٠ ، ٢١ ط أوربا . والشعر والشعراء : ١/١٥٥ معارف

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة ! فى الجاهلية هجا « بشر بن أبي خازم » سيد العرب « أوس بن حارثة » فقالت له أمه سعدى : إنه لا يغسل هجاءه لك إلا مدحُه .

وهذا « كعب » يهجو الأنصار ، فما تزال قريش به حتى يمدحهم ، ليصلح بشعره ما أفسد !

و « ابن هشام » قد أفرد فى (السيرة) فصلاً خاصًّا لما قيل من الشعر فى يوم بدر[١] كما أفرد فصلاً آخر لما قيل من الشعر فى يوم أحد[٢] وكذلك فعل فى ذكر الأسباب التى دعت إلى فتح مكة[٣] ثم ظل يتتبع أقوال الشعراء فى الصراع المرير بين الشرك والإسلام ؛ إلى آخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ولقد يكفى هنا أن نستشهد بقصيدتين ، نقدمهما دليلاً يدحض ما قيل عن كراهة الإسلام للشعر ، واشتغال المسلمين عنه بالجهاد ، وحرصهم على أن يطرحوه مع الجاهلية التى ذهبت إلى غير رجعة .

القصيدة الأولى ، للشاعرة القرشية « قتيلة بنت الحارث » أخت النضر بن الحارث وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه فقُتل صبرا ، وهو من أفلاذ أكباد قريش[٤] . فقالت أخته « قتيلة » تبكيه :

يا راكبا إن الأثيل[٥] مَظِنَّة ... من صبح خامسة وأنت موفقُ
أبلغ بها ميْتًا بأن تحيةً ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك ؛ وعبرةً مسفوحة ... جادت بواكفها، وأخرى تخنُق
هل يسمعَنّى النضرُ إن ناديتُه ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد ؛ يا خير ضنء كريمة ... فى قومها،والفحلُ فحل مُعرِق
ما كان ضرّك لو مننتَ وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنَق
أو كنت قابلَ فدية فلينفقنْ ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقربُ من أسّرتَ قرابةً ... وأحقهم ؛ إن كان عتقٌ يعتق

---

(١) السيرة : ٣/٨ – ٤٥ ط الحلبى . (٢) السيرة : ٣/١٣٦– ١٧٧ .
(٣) السيرة : ٤/٣١ – ٤٠ . (٤) السيرة : ٣ – ٢٩٣ .
(٥) موضع قرب المدينة بين بدر ووادى الصفراء ، به قتل « النضر بن الحارث » صبرا .

ظلت سيوف بنى أبيــه تنوشــه ... لله أرحــامٌ هنــاك تَشقّقُ
صبراً يقــاد إلى المنيــة متعباً ... رسفَ المقيَّدِ وهو عانٍ موثَق

قال ابن هشام : فيقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر قال : « لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه »[1] !

والقصيدة الثانية لعمرو بن سالم الخزاعى ، جاء بها « ابن هشام » بين عدد من القصائد ، فى مستهل « ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة » قال :

« وكانت قريش قد تظاهرت مع بنى بكر على خزاعة ، وأصابوا منها ما أصابوا ، ونقضوا "عهد الحديبية" بما استحلوا من خزاعة ، فقدم عمرو على رسول الله بالمدينة ،**وكان ذلك مما هاج فتح مكة** ، فوقف عليه صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس ، فقال مرتجزا :

يا ربِّ إنى ناشدٌ محمــدا
حِلفَ أبينـا وأبيــه الأتلدا
قد كنتمُ ولدا وكنا والدا
ثُمَّتَ أسلمنا ، فلم ننزع يدا
فانصر هداكَ الله نصراً أعتدا
وادعُ عبــادَ الله يأتوا مدَدا
فيهم رســول الله قد تجردا
إن سيم خسفًا ، وجهُه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مُزبِدا
إن قريشًا أخلفوك الموعــدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أنْ لستُ أدعو أحــدا
وهم أذلُّ وأقــلُّ عــددا
هم بيَّتونا بالوتــير هُجَّدا
وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّدا

---

(١) السيرة : ٤٥/٣ .

قال ابن إسحاق : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نُصرتَ يا عمرو ابن سالم" .

« ونهض يتجهز لفتح مكة ، وكان قبل ذلك يطيل من صبره على قريش، لعلها ترجع عن غيها فيما نقضت من ميثاق . . »[1]

* * *

ولو أن الرسول قد فهم من «آية الشعراء» مثل ما فهمه أولئك النقاد الذين اتخذوها شاهداً على أن القرآن قد ناصب الشعر العداء، لكان إصغاؤه صلى الله عليه وسلم إلى الشعراء ، وتشجيعه لهم ، وندبه إياهم لنصرة الدعوة ، غير مفهوم من نبي مبعوث بدين يقف من الشعر موقف العداوة ! ولكان مسلكه عليه الصلاة والسلام، حيال حسان وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم ممن خاضوا المعركة إلى جانبه بألسنتهم ، مناقضاً لموقف دعوته من الشعر !

ولكن آية الشعراء فُهمت على غير وجهها الصحيح ، ولم يخطر ببال هؤلاء النقاد، أن يلتفتوا إلى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر، قبل أن يجزموا بعداء الإسلام للشعراء .

ثم إن آية الشعراء ، لا يجوز منهجياً أن تؤخذ مستقلة عن آيات أخرى من القرآن ذكر فيها الشعر ، وهى آيات لو تدبرناها لبدا لنا أن موضع العناية فى القرآن الكريم هو نفى الشاعرية عن « محمد » تأصيلا لكون رسالته سماوية ، ليست من الخيالات أو الرؤى ، أو من إلقاء شيطان شاعر، ودفعاً لما وقع فى نفوس المشركين ، من أن الرسول شاعر .

يقول تعالى :

« وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين » : يس ٦٩ .

« بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتِنا بآية كما أرسل الأولون » : الأنبياء ٥ .

---

(١) السيرة : ٣٤/٤ .

obeikandi.com

« أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون • قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين • أم تأمرهم أحلامُهم بهذا أم هم قوم طاغون • أم يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين » : الطور ٣٠ : ٣٤ .

« ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون• بل جاء بالحق وصدّق المرسلين » :
الصافات ٣٦ : ٣٧ .

« فلاأقسم بما تبصرون وما لا تبصرون • إنه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكَّرون • تنزيل من رب العالمين » : الحاقة ٢٩ ، ٤٢ .

وهذا الإلحاح فى نفى الشاعرية عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يعنى أن الإسلام قد عادى الشعر وأنكره،وإنما هو بيان لرسالة المصطفى، ودفع للوهم الذى خلطوا به بين القرآن والشعر .

ومن واديه تمامًا ، تأكيد القرآن لأمية محمد صلى الله عليه وسلم ، دفعًا للاتهام بأنه قرأ الكتب السماوية وأخذ منها :

«وما كنتَ تتلو من قبلِه من كتابٍ ولا تَخُطُّه بيمينِك، إذاً لارتاب المبطلون » :
العنكبوت ٤٨ .

ولم تعن أمية الرسول ، وتقرير القرآن لهذه الأمية ، أن الدين الإسلامى يحض على الأمية ، ويعادى العلم ! وقد أقسم الله فى القرآن بالقلم ، وكانت آية الوحى الأولى ، آية القراءة والعلم والقلم :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الإنسان مالم يعلم » .

وبلغ من حرص نبى الإسلام على نشر القراءة والكتابة ، أن جعل فداء الأسرى ممن يقرءون ويكتبون،تعليم عدد من المسلمين الكتابة والقراءة . وكان له صلى الله عليه وسلم ، بضعة وعشرون رجلاً مختصون بكتابة الوحى . ولم يقل أحد إن فى هذا المسلك ، تناقضًا مع صريح آيات القرآن فى أمية محمد ، ونفى القراءة والكتابة عنه !

والحديث الذى رووه: « لأن يملأ فم أحدكم قيحًا خير من أن يملأ شعراً » نقرأ رواية أخرى فيه،عن عائشة أم المؤمنين،تضيف إلى آخره: « هُجِيتُ به» وقد عرض

شيخ الإسلام «تاج الدين السبكى» لهذه القضية فى الجزء الأول من كتابه (طَبقات الشافعية) وانتهى فيها إلى أن الشعر ، ككل كلام ، فيه مذموم معيب ، وفيه ممدوح مثاب . وساق مختارات من شعر الإمام الشافعى وعدد آخر من الأئمة الصالحين .

ولكن النقاد الأقدمين قالوا إن الشعر امتُحن بعداء الإسلام ، وابن سلام قال إن المسلمين شغلوا عن الشعر بما هو خير منه ، بالفتوح والجهاد[1] « والأصمعى » قال : «إن الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ولان . هذا حسان ابن ثابت ، فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره » [2]

قالوا هذا فما لنا فى الأمر حيلة ، ولا لنا من أحكامهم مفر أو مخلص !

وإنهم ليروون مع ذلك أن النبي كان يستحث « حسان» على الإنشاد ويقول له : « اهجُهم فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام . اهجُهم وروح القدس معك » [3] .

* * *

ويستشهدون على عداء الإسلام للشعر ، بما روى عن « لبيد » من أنه انصرف بعد إسلامه عن قول الشعر ، وأن « عمر » بعث إلى واليه على الكوفة ، أن يسأله عما أحدث فى الإسلام من شعر . فتلا سورة البقرة وقال : « أبدلنى الله هذه فى الإسلام خيراً منها »[4] فتلقى دارسون منا هذه القولة ، وراحوا يأخذون منها ، حكماً عامًّا على الشعر كله ، مع أن الخبر ، لو صح ، لما خرج عن نطاق حادثة فردية ، لا يجوز أن يعمم بها الحكم .

بل إن فى الخبر نفسه ، ما يشهد بنقيض ما يدعون من كراهة الإسلام للشعر ، وإلا ففيم اهتمام خليفة المسلمين بمثل هذا السؤال عما أحدث الشعراء فى الإسلام من شعر !

* * *

ثم ماذا فى موقف أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » من الشعر ؟

إنهم ليروون فى تاريخه أنه كان يتحدث إلى وفود القبائل عن شعرائهم ،

---

(١) طبقات ابن سلام : ١ ط أوربا .

(٢) الشعر والشعراء : ١/٣٠٥ معارف .

(٣) ابن رشيق : العمدة ١/١٢ .

(٤) طبقات ابن سلام : ٣٠ .

ويروى الأبيات من شعرهم ، رواية حافظ ناقد ، وربما قضى الليل ساهراً . يصغى إلى الشعر حتى مطلع الفجر ، فيطلب تلاوة القرآن الكريم .

وفى أخباره كذلك أنه كان يبعث إلى بعض عماله ، ليسأل الشعراء المخضرمين عما أحدثوا من الشعر فى الإسلام [١] .

لكنهم رووا كذلك أنه زجر « حسان » وحبس « الحطيئة » وهدد «النجاشى الحارثى » بقطع لسانه ، وذلك كله أجدر بأن يشهد فينا — لو وعينا وتحرر فكرنا من سيطرة القيم التقدية الموروثة — بسلطان الشعر فى هذا المجتمع العربى ، والفتوح الإسلامية فى إبانها ، والجهاد مع الروم والفرس على أشده .

نهى « عمر » حسان بن ثابت وغيره أن ينشدوا شيئًا من نقائض الأنصار ومشركى قريش فى عصر المبعث ، حتى لا تهيج فتنة نامت . ثم حدث أن قدم « المدينة » فى عهده ، « عبدُ الله بن الزبعرى السهمى ، وضرار بن الخطاب » وكانا ، قبل إسلامهما ، من شعراء قريش فى حربها للرسول ، فجعلا ينشدان و « حسان » ساكت على مضض ، امتثالاً لأمر الخليفة ، ثم تركاه مغيظًا يفور كالمرجل ، فتوجه إلى « عمر » وحدثه عما كان ، فقال رضى الله عنه : «لاجرم والله لا يفوتانك » ثم استدعى ابن الزبعرى وضرارا ، وأجاز لحسان أن ينشدهما حتى اكتفى . وقال « عمر » يفسر موقفه :

« إنى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئًا ، دفعًا للتضاغن عنكم . فأما إذ أبوا ، فأنشدوه واحفظوه ! »[٢] .

أفيمكن أن يكون هذا ، والشعر قد أضاع مكانه وتعطل نفوذه وسلطانه ؟

وحبس «عمر» الحطيئة ، حين استعداه عليه «الزبرقان بن بدر» لما قال يهجوه[٣] :

جاراً لقوم أطالوا هونَ منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملّوا قِراه ، وهرَّته كلابُهمُ ... ومزّقوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

---

(١) طبقات ابن سلام : ٣٠ ط أوربا .
(٢) الأغانى: ١٨٩/٢٠ — طبقات ابن سلام: ٦٠
(٣) طبقات الشعراء : ٢٥ — الشعر والشعراء : ٢٨٧/١ .

فما لهذا الشعر يثير « الزبرقان » وإنْ هي إلا كلمات مهدرة يقولها « جرولُ ابن الضراء » ذاك القميء الوضيع المغمور النسب ؟ أفكان نباح جرول ، ينال من الزبرقان في شرف نسبه ورفعة مكانته ، لولا أن الشعر إذ ذاك كان ذا صولة وسلطان ؟

وقال « النجاشي الحارثي » يهجو «تميم بن أبيٍّ بن مقبل العجلاني»[1] :

قُبَيِّلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبةَ خردلِ !
ولا يردون الماء إلا عشيةً ... إذا صدر الوُرَّادُ عن كل منهل
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم ... وتأكل من كعب وعوف ونهشل
وما سُمّي العجلانَ إلى لِقيلهم : ... خذ القعبَ واحلبْ أيها العبدُ واعجلِ

فما لبني العجلان قد غضبوا واستعدوا الخليفة ، وإنها — فيما زعم الزاعمون — كلمات شاعر يصرخ في واد ؟ وفيم تدخل أمير المؤمنين عمر ، وهو المشغول بأعباء الخلافة ، وشواغل الفتوح الكبرى ؟ وهل لهذا تفسير إلا أن الشعر كان محتفظاً بسلطانه ونفوذه على الرأي العام في المجتمع العربي ؟

لكن نقاد العصر العباسي ، قالوا إن الشعر دالت دولته بظهور الإسلام وفقد سلطانه على العرب الذين انصرفوا عنه بالدين الجديد والفتوح ، ولانزال نردد اليوم ما قالوه ونتصور أن قوماً آمنوا بدينٍ كتابُه معجز البيان ، قد زهدوا في البيان وانصرفوا عنه فلم يعد للأدب في دنياهم الجادة المناضلة مكان !

كأنما كانت دنياهم في الجاهلية لهواً ولعباً ، وفراغاً وتعطلا !

ولولا سيطرة أقوال النقاد الأقدمين علينا لما هان على عقولنا أن نسلم بهذا ، ولما غاب عن أستاذ جامعي محقق ، مثل الزميل « الدكتور شكري فيصل » ما في كلامه من تدافع إذ يقول معللاً دعوى ضمور الشعر بعد المبعث : « لسنا نحتاج أن نصف المقاومة التي لقيتها الحركة الإسلامية ، والخصومات التي جبَهتها في مبدأ الدعوة أو فيما بعد ذلك في المدينة ، وكان الشعراء الذين أصلوا النبي صلى الله عليه

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ٢٨٧ .
ابن رشيق : العمدة ١ / ٤٥ .

obeikandi.com

وسلم ودعوته ناراً حامية من هجائهم ومقاومتهم ، **لسان هذه المقاومة** وهم كذلك قد أحسوا أن المجتمع الجديد لن يرحب بهم إذا هم ظلوا يحتفظون بالقيم التى **تملأ أذهانهم وقلوبهم** ، ولن يجدوا فى رحابه هذا الانطلاق الذى كانوا يجدونه فى المجتمع الجاهلى . وإذا ذكرنا هنا ما نعرف من قيمة الشاعر ، أدركنا أى أذى كان يلحق بالدعوة الإسلامية من جراء هذه الأهاجى التى كان يتسلط بها الشعراء المشركون ، وإذا ذكرنا كذلك **أثر الشعر فى نفوس العرب ، وقدرته على استثارتها وعبثه بعواطف الجماعة ، واستجابة العربى لهذه الإثارات العاطفية ، أدركنا ما كان من تعويق هؤلاء الشعراء للدعوة الإسلامية** وعراقيلهم فى طريقها ولذلك لن نعجب **إذا وجدنا الرسول يلجأ إلى هذه الأداة** نفسها ، وإذا وجدنا القرآن يخص هؤلاء الشعراء بمقالته فيهم ، هذه المقالة التى نظرت إليهم على أنهم **ناس لا مكان** لهم فى مجتمع يقوم على الموافقة بين الظاهر والباطن ، والمطابقة بين القول والعمل(١) . .

« ثم إن حركة الفتوح وما رافقها من جو معنوى أو مادى ، لم تكن لتتيح للعرب آنذاك أن ينصرفوا عنها إلى أنفسهم . .

« وسبب فنى آخر هو أن الشعر الجاهلى تمثيل للتقاليد الجاهلية ، **وهم قد آثروا مغادرة هذا الماضى ، والانصراف عن أشباحه وخيالاته ، فانصرفوا لذلك عن الشعر** الذى يمثلها . . وجاء القرآن فكان تعويضاً عن الشعر »(٢) .

ويبدو لى أن ضمور الشعر دعوى غير مفهومة مع هذا الحديث الدقيق الواعى لخطر الشعر على الدعوة الجديدة ، والتجاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى السلاح نفسه ، وما كان للشعر إذ ذاك من أثر فى نفوس العرب وقدرته على استثارتها ، وعبثه بعواطف الجماعة واستجابة العربى لهذه الإثارات العاطفية كتعبير « الدكتور فيصل » نفسه ! وهذا الكلام أولى ، فى تقديرى ، أن يساق شاهداً على سلطان الشعر ونفوذه وسطوته ، لا على ضموره وهوانه ، لولا أن الأستاذ الزميل ، متأثر بمقالة قديمة عن انصراف العرب عن الشعر بالدعوة الجديدة

(١ ، ٢) الدكتور شكرى فيصل : (تطور الغزل) ص ١٨٥ : ١٨٧ ط جامعة دمشق ١٩٥٩ وانظر معه الدكتور طه الحاجرى (فى تاريخ النقد) ص ٤٧ ط الإسكندرية .

وفتوحاتها ! جاء بها « ابن سلام » فى طبقات الشعراء ، منذ اثنى عشر قرناً .

وما فينا من يجهل أن عصر المبعث كان حافلاً بالشعر فياضًا به .. وأن الخصومة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من ناحية ، والمشركين من ناحية أخرى ، كانت عنيفة حادة ، لم تقتصر على السيف والسنان بل امتدت إلى الشعر والبيان ، وإلى المناقضات بين شعراء المعسكرين(١) .

ولا فينا من لم يقرأ الأخبار المروية عن الرسول الكريم ، شاهدة بمبلغ اهتمامه بالشعر ، وحرصه على أن يعبئ المسلمين من الشعراء لصالح الأمة وخير الجماعة ، مؤكدة أن الحياة الجادة المجاهدة لا تستغنى أبداً عن الأدب ولا تستهين بسلطانه على الرأى العام .

* * *

ولقد عاش العرب طويلاً والأدب فنهم الأوحد ووسيلتهم التى لا نعرف أنهم كانوا يملكون سواها للتعبير عن وجدانهم . وجاء الإسلام بمعجزة بيانية ، فكانت هذه المعجزة آية تقدير لمكان البيان فيهم ومنزلته عندهم ، بقدر ما كانت شاهداً على أن الإسلام لم يجئ ليعطل البيان ، بل أقر وظيفته فى المجتمع وأبقى لذويه ما كان لهم من قديم ، من شرف القيادة الوجدانية والتكلم بلسان الجماعة .

وكان التطور الهام الذى حدث ، هو أن الإسلام أراد لشاعر القبيلة أن يصير شاعر الأمة ، فلم يهدر بهذا ذاتية الشاعر ، بل أراد لها أن ترحب فلا تعود محدودة بنطاق الأسرة ، والقبيلة . .

ولم يصر الشاعر فى الوضع الجديد داعية مأجوراً ، فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أحد من خلفائه رضوان الله عليهم ، يستبيح أن يفتح بيت مال المسلمين للشعراء ثمنًا لتأييدهم ، بل ما كان الرسول ولا أحد من خلفائه يعد هذا المال ملكًا له يتصرف فيه كيفما شاء ، وإنما هو مال المسلمين أمانة بين أيدى النبي والخلفاء الراشدين ، ينفقون منه على خير الرعية ومصلحة الجماعة طبقًا لحدود الله . . .

(١) الأستاذ طه إبراهيم : النقد الأدبى عند العرب : ٢٧ .
وانظر معه : الدكتور بدوى طبانه (دراسات فى النقد) ، ص ٥٨ .

كان الشاعر إذن ، يصدر عن عقيدة وإيمان ، ويهون عليه فى سبيلهما أن يُغضب عشيرته عند اختلاف الدين . لا التماساً لأجر مادى كما كان يفعل المرتزقة من تجار الشعر ، بل ابتغاء مرضاة الله ورسوله . وربما أرّقت الشاعرَ ذكرياتُ مسايرته قومَه على الكفر ، قبل أن يشرح الله قلبه للإسلام . فيقول عبد الله بن الزبعرى السهمى : لى

منع الرقادَ بلابلٌ وهمومُ ... والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتانى أن « أحمد » لامنى ... فيه ، فبتّ كأننى محموم
إنى لمعتذر إليك من الذى ... أسديت إذ أنا فى الضلال بهيم
أيامَ تأمرنى بأغوى خطة ... سهمٌ ، وتأمرنى بها مخزوم
فاغفر فدًى لك والدىَّ كلاهما ... ذنبى ، فإنك راحم مرحوم
وعليك من أثر المليكِ علامةٌ ... نورٌ أضاء ، وخاتم مختوم !

وما أبعد الفرق بين اعتذار النابغة يبغى به رضى « النعمان » وعطاءه ؛ وبين اعتذار « عبد الله بن الزبعرى » وأمثاله ممن أسلموا بعد كفر ، فلو سئلوا أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل عقيدتهم ، لما ترددوا فى بذلها طائعين راضين !

* * *

obeikandl.com

وحين أسأل هنا : ماذا أردت بكل هذا الكلام المسهب عن الشعر فى الإسلام ؟ وأى شىء يجدى علينا فى حاضرنا ؟

أجيب :

اليوم تذيع فينا دعوة تنكر أن يكون للأدب مكان فى حياتنا الجادة الطامحة ، وتطالب بأن يتخلى الأدب عن موضعه كى يفسحه للعلم ، وهذه الدعوة بلاشك ، صدى الفهم الخاطئ لوظيفة الأدب . والزعم الباطل بأنه لون من الترف لا يلائم عهد الجد والكفاح . فلو لم يكن من وراء ذلك الكلام عن الشعر والإسلام ، إلا أن يصح فهمنا لتراثنا ، وتقديرنا لخطر الشعر فى أحفل مراحل تاريخنا بالجد والجهاد ، لأدركنا مدى حاجتنا اليوم إلى قيادة وجدانية يتولى بها الأدب حراسة معنويتنا ، ويحمى إنسانيتنا من طغيان المادية وجفاف الآلية وضراوة النفعية ، ويحدو نضالنا فى عالم اليوم !

ونسمع اليوم كلاماً كثيراً عن حرية الأديب : فناس يطالبونه بأن يلتزم بقيود المجتمع وتقاليده ونظمه . ويزعم آخرون أن فى هذا الإلزام مصادرة لحريته الشخصية . وهذه الخصومة أيضاً ، ليست إلا صدى للفهم الخاطئ الذى سلب الأديب صفته الاجتماعية ، فساغ لنا أن نتصور إمكان وجود حرية مطلقة يستبيح الفرد بها أن يقول ما شاء ويفعل ما شاء باسم الحرية . . ولو صح فهمنا لاجتماعية الأديب ، بما هو إنسان ، لتبين لنا أن حريته هى حرية فرد فى مجتمع ، من حقه أن يمارسها كيفما شاء ، لكن ليس على حساب الآخرين . ومن هنا جاز أن تصادر حرية الأديب إذا انحرف أو ضل ، أو إذا جاوز بها النطاق الذى يلزمه به كونه إنساناً يعيش فى مجتمع ، وهذه المصادرة — التى رأينا مثلاً منها فى : زجر عمر لحسان ، وحبسه الحطيئة ، وإنذاره النجاشى الحارثى بقطع لسانه — لا تعنى بحال من الأحوال إهدار الحرية الفردية ، وإنما تعنى احترام مدنية الإنسان التى لا تظهر إلا فى نطاق حياته مع الجماعة ، والتى تفرض علينا روابط وقيوداً لابد من التزامها ما دمنا نعيش فى مجتمع . . . .

obeikandi.com

obeikandl.com

الخضرمة

إرهاص وانتقال

طبقات الشعراء عند « ابن سلام » : عشر للجاهليين وعشر للإسلاميين .

ويقول تراثنا : إن الشعر عبر مرحلة انتقال فى فترة الخضرمة التى بدأت من أخريات الجاهلية مرهصة بالتحول الخطير ، واستغرقت زمن الجيل الإسلامى الأول ، بما حمل من رواسب القديم .

obeikandl.com

obeikandl.com

ولقد جاء الإسلام بمثله العليا ، حيث لا مكان فيها للخمريات ، والغزل اللاهى ، والتعصب للقبيلة . وإنما يكون المدح والهجاء ، والفخر والرثاء ، فى نطاق الفضائل الإسلامية التى أخذ الدين الجديد بها أتباعه : من صحة الإيمان وخشية الله ، والبذل فى سبيل العقيدة ، وصدق القول ، ونقاء الضمير .

وتلاقت هذه المثل مع القيم الجاهلية العتيقة الموروثة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون ، ساهرين على التمكين للقيم الإسلامية من المجتمع العربى الذى شهد المبعث .

وهنا تلقانا قضية من أخطر القضايا فى تاريخ الأدب العربى لتلك الفترة : فمنذ جعل « ابن سلام » الشعراء ، إما جاهليين وإما إسلاميين[1] ، والدارسون فى حيرة من أمر شعراء الجيل الإسلامى الأول : فمنهم من عدهم إسلاميين ، خُلَّصًا لا أثر فيهم لجاهلية ، ومنهم من حسبهم جاهليين لم يؤثر الإسلام فى شعرهم .

والوضعان ، كلاهما ، يعزلان الأدب عن الحياة . . .

فظهور الإسلام كان بلا أدنى ريب ، حادثًا جليلاً حاسمًا فى تاريخ الإنسانية جميعًا ، لا فى تاريخ العرب فحسب . فلو صح « أن الأدب لم يتأثر بالإسلام إلا قليلاً . وقلما نسمع فى صدر الإسلام شعراً فيه خشوع وتبتل لله ، أو فيه مثالية الإسلام . ومن جهة التعبير الفنى الخالص ، لا نجد أى فرق بين شعر هذا الجيل وشعر الجاهليين »[2] لو صح هذا ، لكان معناه أن الأدب وقف بمعزل على ذلك الحادث الأكبر الذى هز أرجاء الجزيرة العربية وما حولها، ولشق علينا أن نجعل للأدب مكانًا فى الحياة ، وقد شهد أعظم ثورة فى تاريخنا ، وتاريخ البشرية ، فوقف فى وادٍ والدنيا كلها فى واد . . .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى من جعلوا شعر هذه الفترة – صدر الإسلام –

---

(١) وكذلك المرزبانى فى (الموشح) .

(٢) الدكتور شوقى ضيف : (النقد) ٢٣ – ط المعارف .

إسلامياً خالصاً لا تشوبه شائبة من الجاهلية التي نبتت فيها للشعر جذوره العميقة الراسخة ، واحتكمت تقاليدها الفنية فى أمزجة الشعراء وألسنتهم . فالقول بأن العرب تخلوا فجأة عما ألفوه واعتادوه فى فنهم القولى الذى يمثل التقاليد العريقة لماضٍ طويل « لأنهم قد آثروا مغادرة هذا الماضى والانصراف عن أشباحه وخيالاته ، فانصرفوا لذلك عن الشعر العربى الذى يمثله »[1] معناه أن الأدب تغير تغيراً حاسماً بين يوم وليلة ، فانبتّ من جذوره ، وقطع كل صلة بينه وبين ماضٍ طويل ، عاش فيه إلى أمسٍ جد قريب !

ومن الأقدمين أنفسهم من لحظوا أن بين شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام فريقاً أطلقوا عليهم شعراء الخضرمة[2].وهى تعنى ، فى الأصل اللغوى ، الاختلاط الملحوظ فيه الاشتباه : فالخضرم الماء بين الحلو والمر ، أو هو بين الثقيل والخفيف ؛ واللحم لا يُدرَك أمن ذكر أم من أنثى ، والرجل لا يُعرف أبوه ، أو الأسود من أبٍ أبيض . والأذن مقطوعة دون أن تنفصل . . .

لكن من الأقدمين من لم يلتفتوا فى الخضرمة إلى هذا المعنى ، بل ردوها إلى قولٍ لأبى الحسن الأخفش : « يقال ماء خضرم إذا تناهى فى الكثرة والسعة ، فمنه سمى الرجل الذى شهد الجاهلية والإسلام مخضرماً كأنه استوفى الأمرين ، ويقال أذن مخضرمة إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام »[3] .

والأذن المخضرمة ، فى تعريف اللغويين ، لا هى مفصولة ولا موصولة .

وتفسير الخضرمة بالسعة أو بالانقطاع ، يعطل الملحظ الفنى الذى تقضى به طبيعة عصور الانتقال ، وهو ملحظ لعله لم يفت صاحبَ (القاموس) حين أورد فى المخضرم معانى الاشتباه والاختلاط ، ثم أتبعها بالشاعر الماضى نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الإسلام أو من أدركهما . والسياق قد يلفت إلى أن دلالة التوزع فى الشاعر بين الجاهلية والإسلام ، ملحوظة فى الخضرمة .

على أن مؤرخى الأدب ممن لم يفتُهم هذا الاعتبار ، اكتفوا بأن يخصوا به

---

(١) الدكتور شكرى فيصل : تطور الغزل : ١٨٧ ط دمشق .

(٢) ابن رشيق : العمدة ١ — ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه : ١ — ٧٣ .

الجيل الذى تأثر بالإسلام مع رواسب جاهلية فى شعره . على حين نرى من المهم أيضًا ، أن نجعل من المخضرمين ، أولئك الذين عاشوا فى أخريات الجاهلية ، وإن لم يدركوا الإسلام .

وإذا كان تاريخ الأديان يعترف بأن الإسلام لم يأت فجأة ، دون أن تكون الحياة إذ ذاك قد تهيأت له وظهرت حاجتها إليه ، فالأمر فى الفن شبيه بهذا ، ولابد أن يكون فى شعر الفترة الأخيرة من الجاهلية ، ما يسجل التهيؤ لهذا الحادث الجليل والتطلع إليه .

وقد أفاضت كتب السيرة والتاريخ الإسلامى ، فى ذكر الإرهاصات التى كانت تملأ الجزيرة العربية قبيل المبعث[1] . وبقى أن تعنى الدراسة الأدبية بجمع ما تطلع إليه شعراء الجاهلية من قيم غير التى كانت تسود وتحتكم ، وما أعطى تراثهم قبيل الإسلام ، من شعر التحنف والحكمة ، الذى يمثل فى تلك الفترة الإرهاص الفنى بالتطور المرتقب .

وفى الخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يلتمس من يحفظ كلام « قس بن ساعدة » فى سوق عكاظ ، وقد سمعه الرسول قبل أن يبعث .

وفيه كذلك أنه كان يعجب بقول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقول فيه : هذا من كلام النبوة .

وطرفة هو القائل :

أرى العيش كنزاً ناقصًا كل ليلة ... وما تنقص الأيامُ والدهرُ ينفد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المُرخَى وثِنياه باليد

متى ما يشأ يومًا يقُدْه لحتفه ... ومن يك فى حبل المنية ينقد

أرى الموتَ أعدادَ النفوس ولا أرى ... بعيداً غداً ، ما أقربَ اليومَ من غد

كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعر « أمية بن أبى الصلت » فى الجاهلية قال : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه .

---

(١) اقرأ فى هذا الجزء الأول من السيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ الطبرى، والجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويرى ، ط دار الكتب .

وليس ببعيد من الإرهاص الفنى مثلُ قول « زهير بن أبى سلمى » :

فلا تكتمُن اللهَ ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يُكتَم اللهُ يعلم
يؤخرْ فيوضعْ فى كتاب فيدخرْ ... ليوم الحساب أو يُعجلْ فينقم

• • •

وأعلم علم اليومَ والأمسِ قبله ... ولكننى عن علم ما فى غدٍ عمِ
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم
ومن يوفِ لا يُذمَمْ ومن يُفضِ قلبه ... إلى مطمئن البرِّ لا يتجمجم
ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة ... ولو خالها تخفى عن الناس تعلم

أو قوله :

ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لى أن الله حق فزادنى ... إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
وأنى متى أهبطْ من الأرض تلعة ... أجد أثراً قبلى ، جديداً وباليا
أرانى إذا ما بتّ بِت على هوى ... وأنى إذا أصبحت أصبحت غاديا
إلى حُفرة أهدَى إليها مقيمة ... يَحثُّ إليها سائقٌ من ورائيا
كأنى وقد خلفت تسعين حجة ... خلعت بها عن منكبيّ ردائيا
بدا لى أنى لست مُدركَ ما مضى ... ولا سابقٍ شيء إذا كان جائيا
أرانى إذا ما شئتُ لاقيت آية ... تذكرنى بعد الذى كنتُ ناسيا

• • •

ألم تر أن الله أهلك تُبّعاً ... وأهلك لقمانَ بنَ عادٍ وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعونَ جباراً طغى والنجاشيا
ألا لا أرى ذا إمّة أصبحتْ به ... فتتركه الأيام وهى كما هيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة ... من الشر لو أن امرأً كان ناجيا
فغيّرَ منه ملكَ عشرين حجةً ... من الدهر يومٌ واحد كان غاويا
فلم أر مسلوباً له مثلُ ملكه ... أقلَّ صديقاً باذلاً أو مؤاسيا
فأين الذين كان يعطى جيادَه ... بأرسانهن والحسانَ الغواليا
وأين الذين يحضرون جفانَه ... إذا قدمت ألقوا عليها المراسيا
رأيتهمُ لم يشركوا بنفوسهمْ ... منيّتَه ، لما رأوا أنها هيا !

وقول « لبيد بن ربيعة » فى الجاهلية[1] :

حمــدت الله والله الحميــد ولله المؤثّــلُ والعــديــدُ
فــإن الله نــافِــلةٌ تُقــاه ولا يقتــالهــا إلا ســعيد

• • •

قَضِيَ الأمور وأنجز الموعــود والله ربى ماجــد محمــودُ
ولقد بلت إرمٌ وعادٌ كيــدَه ولقد بلتَه بعد ذاك ثمــود
خــلَّوا ثيابَهِـمُ على عوراتهم فهمُ بأفنيــةِ البيوت هُمود
ولقد سئمتُ من الحياة وطولهــا وسؤال هــذا الناس : كيف لبيد

• • •

بلينــا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئــه يحورُ رَماداً بعد إذ هو ساطع
وما المــال والأهلون إلا ودائــع ولابد يوماً أن تُرَدَّ الودائــع

• • •

إنمــا يحفظ التــقى الأبــرارُ وإلى الله يستقر القــرار
وإلى الله تــرجعــون وعنــد الله وردُ الأمــور والإصدار
كلَّ شىء أحصى كتاباً وعلماً ولــديــه تجلّت الأسرار

« وزهير ، وطرفة ، وقس بن ساعدة » لم يدركوا الإسلام . و« أمية ولبيد» قالا هذا الشعر فى الجاهلية ، وقد جئنا من شعرهم هنا بما يكفى لأن يشهد بما نريد أن نلفت إليه من تمثيل الشعر فى أخريات الجاهلية لفترة التطلع والترقب والانتظار ، وأن نصحح به ما شاع فينا من قيم وآراء تعزل الفن عن الحياة ، ونفصل فى هذا التناقض العجيب الذى تواجهنا به الدراسة الأدبية فى القديم والحديث . فنرى « ابن سلام » مثلاً يهدر فترة الخضرمة ، ويوزع طبقاته على جاهليين وإسلاميين ،

(١) المشهور عن « لبيد » أنه لما أسلم ترك الشعر فلم يقل إلا بيتاً أو ثلاثة أبيات . انظر الشعر والشعراء ١/٢٣٢ ط الحلبى .

وراجع قصائد لبيد ، فى صفحات ٣٤ ، ٣٨ ، ١٦٨ من « شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامرى » ط الكويت ١٩٦٢ .

ونقرأ للدكتور شكرى فيصل « أن العرب وقد آثروا مغادرة ماضيهم فى الجاهلية والانصراف عن أشباحه وخيالاته فانصرفوا لذلك عن الشعر العربى الذى يمثله » على حين يقول الدكتور شوقى ضيف : « إن الأدب لم يتأثر بالإسلام إلا قليلا » .

وما ذاك إلا لأنهم أهدروا فترة الخضرمة ، إهداراً يأباه تراثنا الفنى وتنكره طبيعة الفن وناموس الحياة .

وهذا شعرهم فى أخريات الجاهلية ، يؤيد وجهة نظرنا فى الرجوع بفترة الخضرمة إلى ما قبل الإسلام ، مسجلةً للإرهاص الفنى بالحادث الجليل ، ومعبرةً عن التهيؤ العام الذى عرفناه سياسيًّا واجتماعيًّا ، فى تناسى العرب لعصبيتهم للقبيلة أمام الخطر الأجنبى ، وقتالهم مجتمعين فى « يوم ذى قار » . وعرفناه دينيًّا وخلقيًّا فى مثل « حِلف الفضول » الذى تداعت إليه قبائل من قريش ، « وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه ، وكانوا على مَن ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته » وقد شهد المصطفى هذا الحلفَ قبل أن يُبعث ، ثم قال فيه بعد المبعث : « لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفًا ما أُحِبُّ أن لى به حُمْرَ النعم ، ولو أُدعَى به فى الإسلام لأجبتُ »[1] .

وكما كان التهيؤ الاجتماعى عامًّا فى الجزيرة كلها ، وكان التهيؤ الدينى مركّزاً فى مناطق بعينها ، كذلك رأينا صدى ذلك فى الشعر ، حيث بدأ الإرهاص الفنى للتحول الدينى عند الشعراء المتحنفين فى مكة : مثابة حج العرب ومركز تدينهم ، وعند المتطلعين من الحكماء ذوى الاتصال بالبيئات الدينية .

* * *

وإذا تركنا من المخضرمين ، شعراء الجاهلية الذين لم يشهدوا الإسلام مثل « زهير والنابغة وطرفة » وجدنا من أدركوا الإسلام لم يتأثروا به على حدٍّ سواء . بل تفاوت تأثرهم بنسبة قدمهم فى الجاهلية ، أو مدى تمثلهم للقيم الإسلامية الجديدة وانفعالهم بها ، وحظهم من صحبة الرسول، عايه الصلاةوالسلام ومكانهم فى المجتمع الدينى الجديد .

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٤٠ ط الحلبى .

وكنت فيما مضى ، أحسب أن فى الإمكان تمييز ثلاث فئات فى شعراء الجيل الإسلامى الأول :

الأولى ، لمن أدركوا الإسلام بعد أن نضجت موهبتهم واكتمل فنهم وفات أوان تأثرهم ، وهؤلاء عددتُهم : مخضرمين زمناً جاهليين فنًّا ، مثل : لبيد ، وأمية ابن أبى الصلت ، والخنساء .

الثانية : لمن أدركوا الإسلام صغاراً لم تكتمل موهبتهم ، وهم المخضرمون زمناً ، الإسلاميون فنًّا .

والثالثة : لمن أدركوا الجاهلية والإسلام ، عاشوا فيهما على السواء ، وقالوا الشعر فى كل منهما ، وهم المخضرمون زمنًا وفنًّا ، كحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، والحطيئة .

لكنى أوثر اليوم أن أضيف إلى هذا التقسيم الذى يميز كل صنف من المخضرمين على حدة ، ملحظًا جديداً هو أن الذين شاخوا فى الجاهلية ، قد عاشوا فى فترة الترقب والقلق والإرهاص ، فبانت فى شعرهم ملامح من الحياة الجديدة قبل أن يدركوها ، على ما رأينا فى شعر لبيد وأمية .

كذلك الأمر بالنسبة إلى الآخرين ممن أدركوا الإسلام وتأثروا به وقالوا الشعر بعد المبعث ، فإنهم لم ينجوا تمامًا من تأثر بالجاهلية التى غبرت .

والنظرة الناقدة ، لا يخطئها أن تلمح أثراً إسلاميًّا فى شعر الذين لم يسلموا منهم ، كما لا يخطئها أن تلمح نزعة جاهلية فى شعر الذين أسلموا وخاضوا المعركة بلسانهم ، إلى جانب الرسول صلى الله عليه سلم .

فعبد الله بن الزبعرى ، قال فى « أحُد » قبل أن يسلم :

يا غراب البينِ أسمعتَ فقل ... إنما تنطق شيئًا قد فُعِلْ
إن للخير وللشر مدى ... وكلا ذلك وجهٌ وقبل
والعطيَّاتُ خِساس بينهم ... وسواءٌ قبرُ مُثرٍ ومُقِلّ
كل عيش ونعيم زائل ... وبنات الدهر يلعبن بكل
أبلغا حسانَ عنى آيةً ... فقريض الشعر يشفى ذا الغُلَل

obeikandl.com

كم قتلنـــا من كريم ســـيد ماجـــدِ الجدين مقدام بطلْ
صادق النجـــدة ، قرم ، بارع غيرِ مُلتاثٍ لدى وقع الأسَل
ليت أشياخي ببـــدرٍ شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حـــكّتْ بقبـــاء بركها واستحرَّ القتلُ فى عبد الأشل
ثم خفـــوا عنـــد ذاكمْ رُقَّصًا رقص الحفَّان يعلو فى الجبل
فقتلنـــا الضِّعفَ من أشرافهم وعَدلنا مَيْـــلَ «بدرٍ» فاعتدل
لا ألـــوم النفس إلا أننـــا لو كررنـــا لفعلنا المفتعـــل
بسيوف الهنـــد تعلو هامَهم عَلَلًا تعـــلوهم بعـــد نَهَل

ثم لما فتح الله صدره للإسلام ، أقبل على الرسول ينشد فى انفعال صادق مخلص للدين الجديد(١) :

يا رســـول المليـــك إن لسانى راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بورُ
إذ أجـــارى الشيطان فى سنَن الـ غى ، ومن مال ميلَه مثبور
آمـــنَ اللحمُ والعظـــام بما قلـ ـت ، فنفسى الفدى وأنت النذير

كذلك لم يحل حسن إسلام « حسان » ، ومكانه من النبي الكريم ، دون نزعة جاهلية فى شعره ، فلقد جاء فى مدحته الهمزية للرسول ، بأبيات فى الغزل والخمريات على مألوف الجاهلية ، رغم كراهة الإسلام لهذا الصنف من الشعر ، وهو ملحظ لم يفت «أبا العلاء المعرى» حين جاء بحسان بين شعراء جنة الغفران ، ليسأله على لسان « ابن القارح » عن أبياته :

كأن ســـبيئـــة من بيت راس يـــكون مزاجها عسلٌ ومـــاء
على أنيابها ، أو طعمَ غضٍّ من التفـــاح هصَّره اجتنـــاء
على فِيها ، إذا ما الليل قلت كواكبه ، ومال بها الغطاء
إذا ما الأشربات ذُكرن يوما فهنَّ لطيِّبِ الراحِ الفـــداءُ

ثم يقول له منكراً :

« ويحك ! ما استحييتَ أن تذكر مثل هذا فى مدحك رسول الله ؟ »(٢)

---

(١) طبقات ابن سلام : ٥٩ .
(٢) رسالة الغفران : تحقيق الدارسة : ٢٣٥ ط رابعة – ذخائر العرب .

و « كعب بن زهير » استهل (بردته) بالتقليد الجاهلي العريق :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيّمٌ إثرَها لم يُفْدَ مكبولُ
وما سعاد غداةَ البينِ إذ رحلت   إلا أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ

ولم يمنعه تأثره بالقيم الإسلامية فى مثل قوله :

إن الرسول لنور يستضاء بـه   مهند من سيوف الله مسلول
نبئت أن رسـول الله أوعـدنى   والعفو عند رسول الله مأمول

من نزعة جاهلية يأباها الإسلام ، فى تعريضه بالأنصار [١] ، وهم من هم فى المجتمع الإسلامى ، فيقول مباهيا بقريش :

فى فتيـة من قريش قال قائلهم   ببطن مكةَ لما أسلموا : زولوا
زالوا، فما زال أنكاس ولا كُشُفٌ   يوم اللقاء ولا سـودٌ معازيل
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم   وما بهم عن حياض الموت تهليل
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم   ضربٌ إذا عَرَّدَ السودُ التنابيل

والإسلام لا يقر الهجاء باللون ، ولا يرى تفاضل الناس بالألوان، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

• • •

وكذلك كان النقد الأدبى فى تلك الفترة مخضرما ، موزعًا بينَ بين : منه ما يحتكم إلى مقاييس إسلامية خالصة ، كنقد عمر لبيت سحيم حين قدّم الشيب على الإسلام ، فى قوله :

عميرةَ ودِّعْ إن تجهزتَ غادياً   كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

وإعجابه بزهير لأنه كان « لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظل فى المنطق ، ولا يقول إلا ما يعرف ، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه » [٢] .

وكقوله لبنى العجلان ، حين شكوا إليه النجاشى الحارثى لقوله فيهم :

قُبيّـلة لا يغـدرون بـذمة   ولا يظلمون الناس حبةَ خردلِ

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء — ٢٠ . والشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/١٥٥ معارف

(٢) المرزبانى : الموشح ٣٥٤ ط السلفية ١٣٤٣ . والشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/١٣٨ معارف .

« ليت آل الخطاب هكذا »

ثم لما وصلوا إلى بيت الحارثى :

وما سُمى العَجلانَ إلا لقيلهم : خذ القعبَ واحلبْ أيها العبدُ واعجلِ

قال عمر : كلنا عبيد الله ، وسيد القوم خادمهم [١] .

ومنه ما يحتكم إلى موازين وقيم جاهلية : هذا « لبيد » — الذى اشتهر بصحة إسلامه ، وبلغ من تأثره بالدين الجديد أن امتنع عن قول الشعر اكتفاء بالقرآن فيما قالوا — سئل بعد إسلامه عن أشعر الشعراء ، فأجاب : الملك الضليل . يعنى امرأ القيس ، وهو من أنكرتْه القيم الإسلامية حتى ليُروى أن رسول الله قال فيه :

« إنه يأتى يوم القيامة حاملاً لواء الشعراء إلى النار »[٢] !

* * *

وأمام ما يشهد به تراثنا من أن الأدب كان فى تلك الفترة ممثلاً للخضرمة بما يحمل من ملامح الجاهلية والإسلام ؛ وما يبدو فيه من تأثرٍ بالحياة الجديدة مع رواسب من الماضى ، نأبى أن نقول مع عدد من مؤرخى الأدب ونقاده بالانقطاع البات ما بين الشعر العربى وقديمه الجاهلى « فإن انصراف المسلمين إلى الفتح والجهاد ، فإذا خلوا فإلى العبادة والنسك ، هو الذى صرفهم عن إنعام النظر فى الأدب ونقده ، اللهم إلا تطبيق تلك الروح الدينية والخلقية التى جاء بها الإسلام» . [٣]

ونأبى كذلك التسليم بالقول :

« إننا إذا تجاوزنا عن مثل عمر — ممن يمثل القوامة على القيم الإسلامية — لم نجد كبيرَ فرق بين النقد الأدبى لهذا العصر ، وبينه فى العصر الجاهلى » . [٤]

ذلك لأن إهدار ملامح الخضرمة فى ذلك الجيل ، وضم شعرائها ونقادها

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٣٣٠ معارف .

(٢) العمدة : ١/ ٥٩ .

والشعر والشعراء : ١/٧٤ .

(٣) الدكتور بدوى طبانة : دراسات فى نقد الأدب ٧٣ .

(٤) الدكتور طه الحاجرى : فى تاريخ : النقد ٦٩ .

إما إلى الجاهلية وإما إلى الإسلام ، لا يقره تراثنا الأدبي الذى ساير الحياة وعبر عنها فى مرحلة واجهت أجل وأخطر حادث فى تاريخ العرب .

ولا تبدأ الخضرمة عندنا بظهور الإسلام،بل نمضى بها من أخريات الجاهلية إلى قبيل النصف الثانى من القرن الأول للهجرة : ملتمسين فيها ما يؤكد أن الشعر العربى كان مع الحياة ، ومستخلصين له قيمة جديدة تنفى أنه كان بمعزل عن الأحداث الكبار ، أو أنه انبتّ فجأة من ماضيه الطويل . . .

* * *

وماذا وراء هذا الفهم المحرر لأدب الخضرمة ؟

وراءه أن نستريح من هذا التناقض الحاد ، بين رأى من ذهبوا إلىأن الإسلام بتر الشعراء من ماضيهم ، ورأىِ من قالوا إن الأدب العربى ظل جاهلياً فى صدر الإسلام . ومن ثم ندرك أن الأدب لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، بمعزل عن الحياة . .

ووراءه ألا نصدم أبناءنا الطلاب بأقوال مضطربة متناقضة ، يدفع بعضها بعضاً ويرد بعضها على بعض ، فى الكتاب الرسمى الذى كان مقرراً على طلاب الصف الأول من مدارسنا الثانوية ، يقرأ أبناؤنا فى الفصل الأول الخاص بالعصر الجاهلى ، حديثاً حماسياً عن فضائل للعرب فى قديمهم سجلها الشعر الجاهلى ، الذى عكس صورة من حياتهم فى الصحراء « التى تصقل النفوس وتصهر الطباع وتربى فى القلوب حب الاستقلال وتغرس فى النفس خلالاً أظهرها : الشجاعة ، والكرم ، وإيواء الضيف ، والوفاء بالعهد ، والذود عن الحمى ، وإغاثة الملهوف ، وحماية الجار ؛ والعربى كذلك مرهف الحس لا يقيم على الضيم ولا يرضى بالذل ويعتز بشخصيته »(١) .

وخُتم الكلام عن الجاهلية بنصوص تسجل « تقاليد العرب واعتزازهم بما لهم من شجاعة وكرم وإباء وشمم »(٢) .

(١ ، ٢) انظر كتاب الأدب والنصوص، للسنة الأولى الثانوية ؛ ص ٢ : ٣ ط وزارة التربية والتعليم بمصر — ١٩٥٨ . وقد عدل بعد ذلك .

فلما جاء السادة مؤلفو الكتاب — وهم من خاصة المشتغلين بالدراسة الأدبية — إلى العصر الإسلامى ، بترّوا العرب بتراً من ماضيهم ، ونسوا كل ما ذكروه عن فضائلهم ، وركزوا الجهد فى ذم « عنجهية الجاهلية وغطرستها وتفرق قبائلها»!

كأنما لم يعتز نبي الإسلام بأمهاته فى الجاهلية قائلاً : «أنا ابن العواتك من سليم .» وكأنه صلى الله عليه وسلم لم يذكر « حلف الفضول » ويقول : « لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت» . وكأنه صلى الله عليه وسلم لم يقل لسفانة بنت حاتم طيئ حين ذكرت أباها وهى فى السبايا من طيئ : « لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه » . ثم قال لمن حوله : « خلوا عنها فقد كان أبوها يحب مكارم الأخلاق ! »

نسى السادة المؤلفون كل هذا ، ليؤكدوا أن عرب الجاهلية لا مكارم لهم ، وأنهم لم يعرفوا الفضائل قبل الإسلام ، ثم راحوا — عفا الله عنهم — يتعقبون الشعر الجاهلى المسجل لمكارم الأخلاق ، ليوجهوه توجيهاً يمسخ كل فضيلة للعرب .

فقول الشاعر الجاهلى لزوجته :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له   أكيلا فإنى لست آكلَه وحدى
أخا طارقاً ، أو جارَ بيتٍ فإننى   أخاف ملاماتِ الأحاديثِ من بعدى

شاهدٌ على كرمٍ أفسده الخوف من سوء الذكرى !

وقول حاتم :

أماويَّ إن المـــال غادٍ ورائح   ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ

شاهد على جود مذموم ، يطلب له الثمن من حسن الذكر ! فالعبرة كانت عندهم بحب المدح وخوف الذم !

وزهير بن أبى سلمى ، الذى كان فى الفصل الأول من الكتاب داعية سلام ، صار فى الفصل الثانى من الكتاب نفسه ، داعية حرب ، وجيء بقوله :

ومن لم يذدْ عن حوضِه بسلاحِه   يهدم، ومن لا يَظلم الناس يُظلمِ

شاهداً على أن العرب « كانوا يحبون القتال ، حرفة يحترفونها ويهبون لها لأوهى الأسباب ، بل بغير سبب أو داع »[1]

---

(١) الأدب والنصوص للسنة الأولى الثانوية ص ١٥٠ : ١٧٠ ط ١٩٥٨ .

ولو فُهمِتْ الخضرمة على وجهها الصحيح ، لأُعفينا من هذا التناقض ، ولما احتجنا إلى توجيه النصوص على هذا النحو الذى يمسخ فضائل أجدادنا العرب ، بل لرأينا فى مثل تلك النصوص ، إرهاصًا شعريًّا بتهيؤ العرب للتحول الخطير ، ولأقررنا لهم بفضائلهم التى أقرها لهم الإسلام واعترف بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فى مثل كلمته عن حاتم طيْ ، واعتزازه بحلف الفضول . . .

وكان هذا الفهم للخضرمة أيضًا ، يعفينا من الاضطراب الألم الذى نشهده فى ذلك الكتاب الرسمى للأدب حين وضع مرثيتين للخنساء فى صخر مع النصوص المختارة من العصر الإسلامى (ص ٢٧٩) ثم أدرج ترجمة حياتها فى باب (الشعر فى العصر الأموى) بعد الأخطل وجرير والفرزدق والكميت ! (ص ٤٠٧) .

أفيكفى هذا بيانًا لشدة حاجتنا إلى فهم الخضرمة ، ويبرر ذلك الكلام المطوّل عنها ، من حيث هى إرهاص وانتقال ؟

إن منطق الخضرمة لا يحكم مرحلة الانتقال فيما بين شعر الجاهلية والإسلام فحسب ، ولكنه يصدق كذلك على كل مرحلة انتقالية بين عصرين ، أىّ عصرين.

obeikandl.com